هذه الثورة.. من صنعها

للأستاذ محمد سعيد العريان

ليس الأدب بمعزل عن السياسة ، وما ينبغى أن يكون عنها بمعزل ؛ فإن الأدب بمعناه الرفيع ، هو الذى يوجه الإنسانية المعاصرة إلى مثلها العليا ، ويسددها إلى أهدافها البعيدة ، ويرسم لها الطريق إلى الحياة الفاضلة التى يجب أن تكون . والسياسة بمدلولها العام هى معنى قريب من ذلك ؛ لأنها — فيما يزعم أهلها — هى التى توجه الناس أو توجه حياة الناس الوجهة التى تتحقق بها مثلهم العليا ويبلغون أهدافهم البعيدة ، وتمهد لهم الطريق إلى الحياة الفضلى ؛ فليس الأدب والسياسة إذن فى الاصطلاح الحديث إلا كلمتين تقعان على معنى واحد أو معنيين متقاربين فى الوسيلة متحدين فى الغاية . وقد مضى العصر الذى كان يقال فيه لبعض المشتغلين بالأدب ، أو لبعض المشتغلين بالسياسة : هذا من الأدب وهذا ليس منه . فقد كان ذلك فى زمان لم يكن الأدب فيه إلا فنا من فنون القول لا من فنون التوجيه . أما اليوم فإن الأدب هو الذى يوجه الساسة قبل أن يوجه الجماهير ؛ لأنه يصنع للساسة برامجهم التى يقودون باسمها الجماهير ...

تلك حقيقة مؤكدة لا سبيل إلى نقضها ، وفى السياسة العربية المعاصرة ألف دليل عليها ؛ فقد تغنى أدباؤهم بالحرية قبل أن يهب فى البلاد العربية كلها زعيم واحد للدفاع عن الحرية ، فلما صار غناؤهم بالحرية وجداناً يتجاوب فى ضمائر الجماهير ، أوجد ذلك الوجدان زعماء الدعوة إلى الحرية

وقد تغنى أدباؤهم بالوحدة العربية قبل أن يجرؤ زعيم عربى واحد أو يخطر على باله أن يدعو لوحدة عربية ؛ فلما جرت أغنيتهم بالوحدة مجرى الدم فى نفس كل عربى بين ساحل الأطلسى وجبال الكرد ، نشأ الزعيم ، أو نشأ الزعماء الذين يدعون إلى وحدة عربية

وكانت الدعوة إلى المساواة وإلى رعاية حق الفقراء فى ثروات الأغنياء ، هتافاً أدبيا ينظمه الشعراء ويتحدث عنه الأدباء ويقصه أهل القصة ، قبل أن يكون مذهبا سياسيا يتمثل فى قوانين ولوائح وبرامج أحزاب سياسية

وما تزال على ألسنة الأدباء وعلى أطراف أقلامهم ، دعوات إنسانية أخرى ، لم تتبلور بعد معانيها أو تتحد مدلولاتها لتخرج من نطاق الشعر والقصة والمقالة المكتوبة والأغنية المازجة ، إلى أن تكون برنامجا من برامج الإصلاح لحزب سياسى جديد أو حزب قديم متجدد ، ولكنها ستبلغ هذه الغاية يوما ؛ فتضيف الأحزاب السياسية إلى برامجها مواد جديدة لم تزل اليوم فصلا من كتاب أو رواية من قصة أو مقطعاً من أغنية .

آمنت بهذه الدعوة منذ كنت ، ويؤمن بها معى المئات أو الآلاف من كل ذى رأى وذى بيان ؛ وما أرى أحداً غير هؤلاء المئات أو هؤلاء الآلاف حقيقاً بأن يسمى أديبا ؛ لأن الأدب إن لم يكن توجيها فهو ليس إلا ببغاوية خرساء ، لها صوت وليس لها صدى ...

والآن إذ تقررت هذه الحقيقة فإنى أعود إلى الكلمة التى جعلتها عنوانا لهذا المقال ، فأسأل عن هذه الثورة التى نعيش فى أحداثها المتتابعة منذ ٢٣ يولية الماضى ... من الذى صنعها ؟ ...

* * *

قبل مولد الصبح من يوم الأربعاء الثالث بعد العشرين من شهر يولية ، كان بضعة نفر من خيار المصريين على صهواتهم ، أو على دباباتهم ، يريدون أن يقتحموا حصنا منيعا من حصون التاريخ . فلم يكد يشرق صباح ذلك اليوم حتى كان كل منهم على باب من أبواب ذلك الحصن يقرعه قرعا متصلا ، فلم تلبث مناليقه أن تحطمت ، فإذا هم وقوف فى ساحة الحصن ترفرف على رءوسهم الراية التى لم ترفرف

على رأس مصرى منذ انهارت مقاومة طومان باى فى وجه الغزاة العثمانيين منذ أربعة قرون ونصف قرن ؛ وبدأ الزمن من يومئذ يكتب صفحة جديدة فى تاريخ مصر ، وما زال من يومئذ يكتب كل يوم فصلا جديدا ...

كان ذلك فى صباح الأربعاء الثالث بعد العشرين من يولية الماضى ، فهل يكون يوم الأربعاء ذاك ، هو أول تاريخ تلك الثورة ، أو مولد تاريخها ؟ ...

هذا هو السؤال فى سورة أخرى ...

ولكن المصريين فى ذلك اليوم لم يكونوا بمعزل عن تلك الحركة التى كانت هى أول الثورة فى عرف المؤرخ الواقعى ؛ فقد كان فى نفس كل مصرى من الملايين العشرين ثورة تضطرم ، فما كاد يرتفع هتاف أولئك النفر من خيارهم حتى رجعت صداه تلك الملايين ، فإذا هى ثورة شعب كامل لم يتخلف عن موكبها فرد منه . فهل كان أولئك الملايين العشرون شركاء فى التدبير وفى رسم الخطة وفى السعى على ذلك الطريق المظلم قبل مشرق الصبح بساعات إلى أبوابه ذلك الحصن المغلق ؟ وهل كانوا على علم بصير بالنهج وبالقيادة وبالنتائج قبل أن ينكشف شئ من ذلك للبيان ؟

هذا افتراض تأباه طبائع الأشياء ؛ فلم يكن لأولئك الملايين العشرين شأن فى التدبير ، ولا مشاركة فى رسم الخطة ، ولا صحبة على ذلك الطريق المظلم ، ولا علم بصير أو علم مستنبط بالنهج والقيادة والنتيجة ؛ ولكنهم مع ذلك كانوا مؤمنين بأنهم هم الثائرون ، الساعون إلى حصن الظلم والظلام لتحطيمه ودك بنيانه . وكان الهتاف هتافهم والفرح فرحهم ؛ لأن الفوز كان منسوبا إليهم جميعا لا إلى بضعة نفر منهم ؛ فهل يكون ذلك إلا دليلا على أن هذه الثورة التى بدت طلائعها للعيان فى ذلك الصباح ، لم يكن ذلك الصباح أول ميلادها ، لأنها كانت مولودا ناميا من قبل ذلك التاريخ بأمد بعيد ! ...

وإذن فمتى كان ميلادها الحقيق ؟ ...

هذا هو السؤال فى سورة ثالثة ...

إنها ثورة ، وهى ثورة عامة انبثقت من إحساس الملايين ، وهى بعيدة الميلاد الحقيق عن اليوم الثالث بعد العشرين من شهر يولية ؛ كالبذرة الحية فى الأرض الخصبة ، تغطيها طبقات من التراب ، ويتعاورها الحر والبرد ، ويتعاقب عليها الجفاف والمطر ، وتتقلب عليها رياح الشمال ورياح الجنوب ؛ ولكنها لا تنبت إلا حين يحين موعد نباتها ؛ فليس أول تاريخها هو اليوم الذى نجمت فيه على سطح التربة ، لأنها ذات تاريخ قديم تحت التراب ؛ وإنما أول تاريخها يوم حفر لها غارسها فى الأرض ثم قال لها انتظرى حتى يحين موعد نباتك ؛ فمن الذى أودع بذرة تلك الثورة هذه الأرض الخصبة وقال لها انتظرى يوما مثل يوم ٢٣ يولية ؟

هذا هو السؤال فى سورة رابعة ، وهو هو السؤال الذى جعلته عنوانا لهذا المقال ! ...

* * *

إنما أودع تلك البذرة هذه الأرض ، أحرار الفكر وأصحاب البيان وذوو الأقلام والألسنة ، منذ كان فى مصر خطيب وقاص وشاعر وكاتب وذو بيان ...

أولئك الأدباء الأحرار الموجهون ، هم صانعو تلك الثورة ؛ لأنهم هم ، ولا أحد غيرهم ، الذين أودعوا الأرض تلك البذرة التى استكنت إلى موعدها ؛ فلما حان موسم النبات انطلق أولئك النفر الأخيار على صهواتهم ، أو على دباباتهم ، ليقتحموا ذلك الحصن المنيع من حصون التاريخ ؛ فاقتحموه . وكان انطلاقهم كهبوب نسمات الربيع على الأرض الخصبة ، أذانا بحلول موسم الإنبات ؛ فانفرق التراب عن النواة ، وانفلقت النواة عن الشجرة ، ثم كانت الزهرة والثمرة ، واستكملت الثورة مظاهرها ...

ادرسوا أدب ما بعد الحربين ، واقرءوا كل حرف وكل كلمة وكل نغمة مما كتب الكاتبون أو نظم الناظمون